المخططات الفرنسية للقضاء على الثورة الجزائرية من الداخل – الولاية الثالثة نموذجا –

أ.كمال سليح (جامعة الجزائر 02)

Résumé

Cet article inclus dans l'histoire politico-militaire, il traite une partie de la stratégie et les plans français contre la révolution dans la région de Kabylie (zone trois , wilaya trois après le congre de la Soummam), 1954 – 1962, l'objectif principal de cet article est la tentative d'éclairer une phase de la révolution algérienne qui est abandonnée par les chercheurs et les historiens.

ملخص

يندرج هذا المقال ضمن التاريخ السياسي العسكري، وهو يعالج جزء من المخططات الفرنسية الرامية إلى القضاء على الثورة في منطقة القبائل (المنطقة الثالثة أو الولاية الثالثة بعد مؤتمر الصومام)، (1954 – 1962)، ويكمن الهدف من وراء هذا المقال في محاولة تسليط الضوء على هذا الجانب الذي اطاله الاهمال من طرف المؤرخين والباحثين في تاريخ الثورة الجزائرية.

مقدمة:

كما هو معلوم، قامت لجنة الستة بتقسيم البلاد عشية اندلاع الثورة إلى خمسة مناطق على النحو التالي: المنطقة الاولى (الاوراس – النمامشة بقيادة مصطفى بن بولعيد)، المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني بقيادة ديدوش مراد)، المنطقة الثالثة (القبائل بقيادة كريم بلقاسم)، المنطقة الرابعة (الجزائر وما جاورها بقيادة رابح بيطاط)، المنطقة الخامسة (القطاع الوهراني بقيادة محمد العربي بن مهيدي)، في حين كُلّف بوضياف بمهمة التنسيق بين الداخل والخارج بين مختلف المناطق، وأعيد التقسيم الجغرافي للبلاد في مؤتمر الصومام، حيث تم استبدال المنطقة بالولاية وأضيفت ولاية سادسة وهي جنوب الجزائر، وقد حاولت فرنسا القضاء على الثورة وجنّدت لذلك مختلف قواتها، ومع اتساع العمل الثوري وعجز فرنسا على احتوائه، بدأت تخطط في ضرب الثورة من الداخل منطقة بعد منطقة ، ووقع اختيارها على المنطقة الثالثة كنموذج لسياستها الجديدة قصد تعميمها على باقي المناطق الاخرى، ففيما تتمثل هذه السياسة ؟ وما هي نتائجها وتأثيراتها وانعكاساتها على الولاية الثالثة بصفة خاصة وعلى الثورة بصفة عامة؟

1 – الموقع الجغرافي للولاية (المنطقة) الثالثة:

تقع المنطقة الثالثة شرق العاصمة، تمتد من وادي ياسر غربا (ولاية بومرداس)، إلى جبال البابور شرقا (ولاية سطيف)، ومن البحر المتوسط شمالا، إلى ولايتي برج بوعريريج والبويرة جنوبا (فراد، م ، 2006: 11)، هذه المنطقة ذات التضاريس الوعرة من جبال وهضاب وسهول ضيقة، وأودية يكسوها غطاء نباتي كثيف (بوعزيز، ي، 2004: 16)، وبذلك يمكننا القول أن سطح هذه المنطقة يتميز بتضاريس متنوعة من جبال (جرجرة، البيبان، والجزء الغربي من جبال البابور)، وسهول كالسهول العليا

الشرقية وجنوب غرب الحضنة، وحوض الصومام ، ضف إلى ذلك الناحية الجنوبية سيدي عيسى وبوسعادة (ولاية المسيلة) المعروفة بالصحراء، وتمتاز المنطقة الثالثة بمناخ رطب، خاصة في فصل الشتاء البارد، ويشتد فيها الجفاف صيفا، تكثر فيها الينابيع العذبة المتدفقة من الجبال، مما أدى إلى وجود غطاء نباتي دائم الاخضرار، ومتنوع من حيث الاشجار كالزيتون، العرعار، البلوط، الزان ، الصفصاف، وغيرها من الاشجار، كما تتميز بكثافة سكانية عالية أهّلتها لأن تحتل المراتب الاولى من خلال مساهمة السكان في دعم الثورة، فمداشرها وقراها كثيرة متقاربة من بعضها البعض، على قمم الجبال والسفوح، وعلى ضفاف الوديان، ظف إلى ذلك وحدة اللسان والدين، فسكان المنطقة معظمهم ينتمون إلى العنصر الامازيغي (بوعزيز، ي ، 2004: 16 – 18)، وتحتل مكانة رائدة بين المناطق الاخرى خاصة، وأنها عبارة عن منفذ مباشر إلى كل المناطق (الاولى، الثانية، الرابعة، والسادسة) ما عدا الاقليم الوهراني (أتومي، ج، 2008: 215، كذلك :شوقي، ع،2004 : ص 131)، فتعتبر همزة وصل، وذلك ما حتم عليها تولي مسؤولية الربط والتنسيق بينها، ومد يد المساعدة لها في الكثير من الاحيان.

2 – عملية العصفور الازرق:

ادرك القادة الفرنسيون سياسيون وعسكريون على حد سواء، أن الاعتماد على الحل العسكري كخيار أوحد لتطويق الثورة وخنقها من أجل القضاء عليها يعد خيار ضروريا أساسيا بالنظر إلى النتائج التي يحققها في الميدان، غير أنه يبقى غير كاف، ومن ثمة بات من الضروري البحث عن خيارات مكملة ومدعمة في ذات الوقت للخيار العسكري.

وبحثا عن مكان لتنفيذ استراتيجية سياسية وبسيكولوجية في نفس الوقت ، كانت المنطقة الثالثة (الولاية الثالثة بعد مؤتمر الصومام) مسرحا لهذه التجارب والمخططات الجهنمية الرامية من ورائها إلى القضاء على الثورة في هذه المنطقة التي كانت تعتبر القلعة رقم واحد في ميدان المقاومة، ومنها يتم تعميمها على باقي المناطق الاخرى في الجزائر.

اهتدت فرنسا إلى خطة جهنمية لإجهاض الثورة في منطقة القبائل ، وهي عبارة عن مؤمراة حولها جيش التحرير الوطني إلى انتصار وخيبة أمل للجيش الفرنسي، أطلق عليها عدة اسماء: العصفور الازرق، كومندو ك، المؤامرة، القوة ك (بوعزيز، ي ، 2004: 104)، وتم تنفيذها في اطار التهدئة (Lacoste ,C. D.J, 1997, 23).

كان الوالي العام في الجزائر "جاك سوستيل" أول من بدأ في التفكير في البحث عن القوة الثالثة منذ نوفمبر 1955، ولهذا الغرض كلف المصالح الادارية المختصة بالتمهيد لها بوسائلها الخاصة، وتم تعيين الجنرال "بوفر" على راس الفرقة الثانية للمشاة ، ليواجه المجاهدين في منطقة العمليات بمنطقة القبائل (بوعزيز، ي، 104)، وقد كان لفشل جيش بلونيس وخروجه من المنطقة الثالثة سببا مباشرا في تفكير السلطات الفرنسية في تنفيذ العملية، لذلك بدأت في البحث عن خلق صراع بين الجزائريين وانشاء قوة ثالثة موالية لها، تحارب معها ضد الثوار (Lacoste,D. J,23)، ولكون موقعها الاستراتيجي الهام سواء من حيث الكثافة السكانية أو توسطها البلاد مما جعلها تكون همزة وصل بين مختلف المناطق، وقلب نابض للثورة، جعل العدو يختارها كمزرعة نموذجية للقضاء على نظام جيش التحرير الوطني (واعلي، 160).

أ – تنفيذ العملية:

بدأت فصول العملية في نوفمبر 1955، عندما اتصل مفتش قديم للشرطة في فرقة الرماة يدعى "محمد أوسمر" بصديق طفولته "عشيش الطاهر" من قدماء المحاربين في الحرب العالمية الثانية (بوعزيز، ي ، 107)، اقترح عليه تجنيد متطوعين جزائريين لمحاربة الثوار في المنطقة الثالثة بنفس أساليبهم، وتخطيطاتهم، يكونون في مستوى المهمة الخطيرة شجاعة وذكاء، يتم تنظيمهم في

فرق مسلحة يتراوح عدد كل فرقة منها بين خمسة و عشرين رجلا، كما هو معمول في فرق جيش التحرير الوطني، يقوم الجيش الفرنسي بتدريبهم وتزويدهم بالاسلحة والذخائر والاموال (الصديق، م.ص، 1990: 09).

تشجع عشيش للفكرة، وابدى تعاونه، فسافر إلى عزازقة قاصد أحمد أزايد (مناضل قديم في حزب الشعب- حركة انتصار الحريات الديمقراطية، من ضواحي مدينة عزازقة بولاية تيزي وزو) وعرض عليه المشروع، هذا الأخير نقل الخبر إلى محمد يازوران (قائد ناحية عزازقة لجبهة التحرير الوطني)، الذي نقل الخبر بدوره إلى كريم بلقاسم قائد المنطقة الثالثة.

امر كريم أزايد الاستمرار في اتصالاته إلى النهاية حتى يتعرف على خطة المخابرات الفرنسية، أهدافها ووسائلها (بوعزيز، ي ، 107 - 108).

ونظرا لحجم وخطورة العملية، عرض كريم خلفياتها على قادة جيش التحرير الوطني بالمنطقة، كما اوفد "مغني محمد الصالح" للتشاور مع عبان رمضان الذي كان في تلك الفترة احد مساعدي أوعمران اعمر قائد المنطقة الرابعة ، وبالرغم من ابداء القادة قلقهم من المشروع وترددهم في اتخاذ القرار، إلا أن كريم أكد لهم أنه يتحمل المسؤولية، فشرعوا في دراسة معمقة للمشروع وجميع احتمالاته، وتم وضع خطة عملية محكمة، وفق سرية تامة لاستغلاله لصالح الثورة (منظمة المجاهدين، 1985 ، 38).

كُلّف لقيادة العملية محمد ايازوران الملقب بـ " سعيد فريروش"، وأعطيت له تعليمات أن لا يجند في المنظمة إلا المناضلون المخلصون والأذكياء الذين يقدرون على تحمل أعباء هذه المخاطرة وكتمان السر (الصديق، 48)، وتم تجنيد المناضلين من ثلاث فئات: من جنود جيش التحرير الوطني المختبؤن في الجبال، رجال الاستعلام المكلفون بمهام الاتصال ونقل الاخبار، والمسبلون في القرى والمدن.

تم اختيار 15 رجلا في البداية، واعطيت اسمائهم لعشيش مع ارقام بطاقات تعريفهم، وكلف كريم بلقاسم رجلا ذو ثقة وهو "مخلوف محمد" بأن يكون إلى جانب ازايد ، ويتولى الاتصال بالفرنسيين، ليحدد معهم نوعية الاسلحة والمبالغ المالية المطلوبة لكل فوج، ويظهر حماسته للعملية، وبعدما تأكد سوستيل من نجاح الخطة هيكل لها كل الوسائل المادية ورصد لها ميزانية خاصة (الصديق: 28)، إذ زود المجاهدين بعتاد عسكري تمثل في السلاح الاوتوماتيكي منها موس كوتو، ماس 36، مدافع رشاش، بنادق قارون، الزي العسكري، المناظير الميدانية بالإضافة إلى مرتب شهري يقدر بـ 30 ألف فرنك فرنسي لكل فرد على مدى احدى عشر شهرا (متحف المجاهد: 23 - 24).

عاد عشيش بالموافقة إلى ازايد بعد لقائه مع أوسمر الذي تدارس العملية مع الولاية العامة، وطالبه بتجنيد المزيد من الرجال، ، وهكذا بدأت عملية العصفور الازرق التي مست نطاق واسعا من منطقة القبائل وبالتحديد: آث جناد، افليسن، أزفون، مع اتساع الرقعة اتجاه عزازقة، بوزقن، أي المنطقة الممتدة من تيقزيرت غربا الى عزازقة شرقا، وثلاث قرى من آث زمنزر بضواحي معاتقة ، اما مراكز تنسيق العملية فكانت موزعة على كل من "اقر نسالم"، "اغيل مهنى"، "آث وانش" (ضواحي تقزيرت)، ونفذت تحت قيادة الجنرالين "بوفري" و "اولي"، للفرقة الحادية عشر للمضليين التابعين لمصالح التوثيق الخارجية للمخابرات المضادة (متحف المجاهد: 31).

وحتى يغطي كريم الخطة، ويذر الرماد في أعين الفرنسيين، لحماية جنوده ومساعدتهم، طلب منهم الاكثار من اطلاق النار في الليل في الهواء وتبادل التراشق الاصطناعي، في حين قام هو بتصفية المعادين للثورة من المصاليين والعملاء وتقديم جثثهم

إلى هؤلاء المجندين ليقدموها بدورهم إلى القوات الفرنسية، وكان يختار قتلاه خارج المنطقة حتى لا يتم التعرف عليهم (بوعزيز، ي ، 109 - 110).

كادت الخطة تنكشف يوما عندما تم قتل خائنا وألبسوه زيا عسكريا، ثم اخبروا الضابط كالعادة، لكن لما انتقل إلى المكان لمشاهدة الجثة، اكتشف انه ليس مجاهدا وانما كان عميلهم وعونهم الامين، مما أدخل الشك لدى القادة الفرنسيين وجعلهم يحتارون من الامر، ويراجعون عميلهم عشيش الذي اتصل بدوره بأحمد أزايد ، وما كان من هذا الاخير إلا أن اخترع مكيدة للتغطية على ما وقع ليطمئن عشيش على أنه المسؤول على العميلة (الصديق، م.ص، 49).

تطورت العملية واكتملت في النصف الاول من عام 1956 ، وقبل رحيل سوستيل في فيفري من نفس العام اخبر بها خليفته روبير لاكوست، حيث شرح له بالتفصيل أهميتها، فاستبشر بها هذا الاخير خيرا متوقعا من ورائها نجاحا كبيرا ونهاية للثورة، لذلك طلع على العالم بشعاره المعروف "الربع الساعة الاخير"، مستبقا للأحداث ومتكهنا بأن الثورة لم يبق لها إلا ربع ساعة لتموت وتنتهي (بوعزيز، ي ، 112).

وفي اطار تعزيز العملية، عمدت الولاية العامة إلى تنصيب فرق الدفاع الذاتي والحركى، متوهمة بذلك أن منطقة القبائل أصبحت موالية لها ، فقامت بتنظيم احتفالا لهذا الغرض يوم 17 سبتمبر 1956 بضواحي تيقزيرت، تم خلاله توزيع الاسلحة على القرى التي اعلنت ولائها، وعلى بعض الفرق العسكرية في المنطقة، لكن فرحة الولاية العامة لم تدم طويلا، بحيث لم يمر سوى أسبوعين حتى يأتي الرد قويا من طرف جيش التحرير الوطني، ففي الفاتح أكتوبر من نفس السنة جرت معركة كبرى في افليسن بين القوات الفرنسية والثوار في كمين نصبه المجاهدون بقرية "ايقر نسالم" التابعة لقوى الدفاع الذاتي، اكتشفت على اثرها فرنسا خيانة هذه القرى لها، مما جعل الجيش الفرنسي يقوم باحراق قرية " أقني موسى" والقرى المجاورة لها (Lacoste, D.J, 49 - 52).

ب – نهاية المؤامرة:

قرر مؤتمر الصومام فضح المؤامرة ، باصدراه أمر إدراج الفرق المسلحة في صفوف جيش التحرير الوطني، لكن بعض المجموعات لم يصلها الأمر، فسارعت قوات العدو المتمركزة في معاقلة إلى حجز أسلحتهم وأسرهم، وفور ذلك عمدت قوات العدو المتمثلة في عشرات الآلاف من جنودها مجهزين بمختلف الاسلحة خفيفة وثقيلة إلى القيام بحملة حصار وتفتيش لدائرة عزازقة ،تيقزيرت، وأزفون، واشتبكوا مع المجاهدين لعدة ايام، شاركت فيه حتى القوات البحرية، تصدى لها المجاهدون بكل بسالة في المعركة المعروفة بـ "أقني أوزيضوض" (الصديق، م.ص، 49 – 50) .

بعد فضح المؤامرة ، تم توزيع الاسلحة على مختلف الكتائب والفرق عبر النواحي التابعة للمنطقة، ويعود هذا النجاح إلى حكمة القادة، وثقة المجاهدين، فكانت صفعة جديدة وبداية مرحلة حاسمة للثورة، وحطمت بذلك كل آمال سوستيل ولاكوست الرامية إلى القضاء على الثورة (الملتقى الوطني لكتابة تاريخ الثورة المسلحة، 14).

ج – نتائج العملية على الثورة:

هزت عملية العصفور الازرق التي جرت في تمام السرية والكتمان في أوساط المقاومة، أركان الجيش الفرنسي ، وأكسبت الثورة ما يفوق عن 1500 رجل مزودين بأحدث الاسلحة القتالية من الرشاشات والمدافع (أتومي، ج ، 30)، بلغ عددها 850

قطعة سلاح، كما تدعمت خزينة المنطقة الثالثة بواسطة المنحة الشهرية لهؤلاء المجندين بمبلغ قدر بـ 84 مليون فرنك فرنسي قديم (بوعزيز، ي ، 112)، وبذلك يمكننا القول أن جوسسة الثورة تفوقت على جوسسة فرنسا ولقّنتها درسا في الجوسسة المضادة.

إذا نظرنا إلى العملية من الناحية السياسية والنفسية، فإن المنطقة الثالثة (الولاية بعد مؤتمر الصومام)، ومن خلالها الثورة الجزائرية، خرجت منتصرة من هذه المؤامرة، بالمقابل أخفقت فرنسا في خلق قوة ثالثة لمواجهة الثورة لاقتناع المجاهدين بشرعية قضيتهم، ومن الناحية العسكرية فإن جيش التحرير الوطني شهد زيادة بنسبة 30 بالمائة مقارنة بالحصيلة المقدمة في مؤتمر الصومام (أتومي، ج ،).

عقب هذه العملية، وجه كريم بلقاسم رسالة مفتوحة إلى لاكوست جاء فيها: "... **أن هدية لاكوست تسلمناها، وسنكافئكم في مستقبل الايام**..."، وفي نفس الاتجاه صرح العقيد محمد اعزوران قائلا: " **إن الشعب الجزائري لا ينبغي أبدا أن ينسى هدية فرنسا الغالية، وأن لا تنسى فضلها في تجنيد الثورة وتسليحها** " (الصديق، م.ص، رحلة، 2002: 197)، كانت هذه العملية نكسة كبرى على فرنسا، وهزيمة نكراء لقيادات أركانها، لكن لم يثنهم عن أعمالهم القذرة، إذ واصلوا نسج مؤامرات أخرى أخطرها عملية الزرقاء أو الزريق.

3 – مؤامرة الزريق bleuite (1958 – 1959):

لم تهضم فرنسا الهزيمة النكراء التي منيت بها ، والخسائر الكبيرة التي تكبدتها من خلال ما عرف بعملية العصفور الازرق، وعلى هذا الاساس، كان لزاما على ادارة الاحتلال أن تعيد الاعتبار لنفسها جراء ما لحق بها، فضلا عن عزمها أكثر من ذي قبل على ضرورة استرداد ما خسرته من أسلحة وذخيرة، لذلك سعت بعد نظر عميق ودراسة مستفيضة للتجربة السابقة والوقوف عند المعطيات الراهنة، من خلال الاعتماد على خبراء الحرب النفسية إلى التسلل والنفاذ إلى عرين الثورة.

ان الوضعية التي كانت عليها الولاية الثالثة والدور المحوري الذي كانت تقوم به بالتنسيق مع الولاية الرابعة في تدعيم الصحراء والاوراس، حوّلت انظار القوة الاستعمارية اليها، فاتجه عدد كبير من قادة الجيش الفرنسي الى التفكير في اعادة عملية العصفور الازرق الفاشلة بصورة اكثر دهاءا وخطورة عن طريق اللجوء الى توظيف الحرب النفسية باستخدام اسلوب تعميم الاشاعة التضليلية (خيثر، ع.ن، 270).

كلل سعي ادارة الاحتلال وأفضى تدبيرها إلى ما كانت تطمح إليه ، حيث عانت الولاية الثالثة الكثير نتيجة الضغط الرهيب الذي فرضته مصالح الاستخبارات الفرنسية التي أحسنت مد خيوطها، وزرع شبكتها عن طريق عملاء استوعبتهم ووظفتهم في عملية انجاز وإنجاح مؤامرة الزريق.

قبل الاسترسال في الحديث عن هذه العملية ، ينبغي لنا أن نقف عند طبيعتها، أهدافها، تداعياتها العنيفة والخطيرة على مسار وحركية الثورة بالولاية الثالثة من جهة، وعلى باقي الولايات الاخرى من جهة أخرى، فضلا عن رغبة فرنسا في كسر شوكة الثورة عبر مراحل مدروسة.

أ – طبيعة العملية ودوافعها:

تعد مؤامرة الزريق صورة بارزة من صور الحرب النفسية التي استطاعت أن تؤثر على استقرار الولاية الثالثة بشكل كبير، وتعود جذورها إلى نهاية سنة 1957 وبداية 1958 (المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، 328)، كان ورائها العقيد "قودار"، فيما تولى تنفيذ العمل الميداني النقيب "ليجي".

أما أصل التسمية، فيعود إلى أولئك الموالون للجيش الفرنسي، الذين يرتدون بذلات زرقاء، ويقومون بمهمة التشويش على خلايا جبهة التحرير الوطني التي كانت تؤرق الجالية الاوروبية في العاصمة (Mekacher, S, 2006 : 61).

وفيما يخص طبيعتها والأساس الذي تقوم عليه، فيتمثل في العمل على تلغيم الولاية الثالثة، بزرع الشكوك في صفوف المجاهدين، فعندما يلقى القبض على احد المجاهدين ، ولا يستطيعون الايقاع به رغم التعذيب والاهانات، يأتي الكاتب العام ليجي الرأس المدبر لهذه العملية ليقول له بأن الثورة مليئة بالخونة ويعدد له اسماء مسؤولين "خانوا الثورة"، ويظهر له وثائق مزورة، وأدلة كاذبة، ثم يسمح له بالفرار لينقل الرسالة على حسن نية لمسؤوليه (عزي، 168).

لقد كانت تلك العملية الخطيرة تحديا كبيرا بالنسبة للعقيد اعميروش ورفاقه في مجلس الثورة، لأنها كانت طعما مفخخا تم التخطيط له بشكل يؤدي الى نتيجة حتمية وأكيدة لصالح الاجهزة الخاصة الفرنسية التي قامت باعداده (خيثر، 271)، كما تم ربط عملية الزريق بقضية المثقفين الذين التحقوا بالجبال أفواجا وجماعات بعد الاضراب العام الذي اعلنه الطلبة يوم 19 ماي 1956، عن الدراسة في الجامعات ، المعاهد والثانويات (بوعزيز، 169).

لجأت السلطات الفرنسي إلى اتباع هذه الاساليب ، وتطبيق المؤامرة في الولاية الثالثة لعدة اعتبارات:

1. رغبة الولاية العامة في رد الاعتبار للهزيمة النكراء التي تعرضت لها جراء عملية العصفور الازرق، والتي حولها نظام الثورة إلى عملية "العصفور الاخضر" (واعلي، 160).
2. محاول احداث القطيعة الجذرية بين الشعب والثورة من جهة، والعمل على زعزعة صف الثورة من الداخل، والنفاذ إلى حصن الثورة من خلال الاعتماد على خبراء الحرب النفسية (المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 328) .
3. قوة نظام الثورة في الولاية الثالثة سنة 1958، إذ بلغ ذروته، لذلك اهتدت فرنسا إلى نمط جديد من غير المواجهة العسكرية المباشرة (واعلي، 348).
4. ادراك فرنسا لدور المثقفين الفعال في التنظيم ، لذلك عملت على استهدافهم والقضاء عليهم (بوعزيز ، 169).

ب – مراحل العملية:

هناك ثلاث مراحل يمكن عدّها أساسية في التمهيد لظهور المؤامرة، تمثلت الاولى في "مصطفي لاليام" الذي التحق بصفوف الثورة عن طريق تونس بعد اضراب الطلبة، وأوكلت له مهمة تنظيم الشؤون الصحية بالولاية الثالثة، وقد توطدت علاقته بطبيبة الاطفال "نفيسة حمود"، وتعاونا على العمل الطبي، لكن النقيب "احسن محيوز" كان من أشد المعارضين لوجود النساء الاطباء، الطلبة المثقفين عامة في الثورة، حيث اعتبرهم عملاء (منشورات المركز الوطني، ص 331).

لعل ما زاد الضغط بالولاية هو مسألة زواج طبيب الاسنان "علي عمران" من "دانيال " الاوروبية التي التحقت بالثورة، وعلى نفس الخطى قام "لاليام" بطلب الاذن للزواج من "نفيسة"، هذا التصرف اغضب جنود جيش التحرير الوطني الذين لم يهضموا مثل هذه السلوكات التفضيلية والتمييزية في الوقت الذي يحكم فيه بالإعدام على كل جندي يتصل بامرأة (بوعزيز، 171).

في ظل هذا الجو المكهرب ، أصدر مجلس الولاية الثالثة بتاريخ 22 أكتوبر 1957، قرار يقضي بارسال كل النساء الموجودات بالجبال مع أزواجهن إلى تونس (المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية، ص 332).

أما المرحلة الثانية، فهي التي قادها النقيب "ليجي" بالتعاون مع "أحسن قندريش" أحد مساعدي ياسف سعدي، وقد وقع الاختيار عليه ليكون وسيط الاتصال بين الولاية الثالثة والجزائر العاصمة ، بغرض اعادة بعث وتفعيل حركة ونشاط العمل الفدائي بالعاصمة.

بعد نجاح عملية تسليم الاسلحة لمسبلي العاصمة الذين اختارهم قندريش العميل الذي اتفق يوم 14 اكتوبر 1957 مع احد مسؤولي الولاية الثالثة (بوعزيز، 178)، دبر ليجي عملية القاء القبض على الملازم الاول "حسين صالحي" ورفاقه منتصف شهر جانفي 1958 في ضواحي برج منايل (المنطقة الرابعة من الولاية الثالثة) (عزي، 158).

لما بلغ الخبر مسامع العقيد عميروش، أصدر أمرا بتحرير مقال عاجل في صحيفة "لومند" الفرنسية يعرض فيه تبادل اطلاق سراح الضابط صالحي مقابل اطلاق سراح الملازم الفرنسي "ديبو" الذي اسر إثر تدمير مركز الحوران بالمسيلة، لكن السلطات الفرنسية رفضت ذلك، حيث عمدت إلى اعدام صالحي خوفا من اكتشاف الثورة لأشياء خطيرة في عالم الزريق (واعلي، 164).

اثر التحريات التي قام بها مسؤولوا المنطقة الرابعة بالولاية الثالثة عن ظروف اعتقال الملازم صالحي ورفاقه، وصلوا إلى نتيجة مفادها وجود خيانة في صفوف جيش التحرير الوطني، توالت الاعتقالات وعمليات الاستنطاق مع التعذيب ، وتسارعت مع مرور الوقت من أجل انتزاع أكبر عدد ممكن من المعلومات (Mekacher, S, 65).

بينما المرحلة الثالثة من هذه المؤامرة، تتمثل في ظهور المناضلة "زهرة تاجر"ذات الـ 18 عام الملقبة بـ "روزا"، (من مواليد 1940 بالجزائر العاصمة، كانت تنشط ضمن خلية تابعة لجبهة التحرير الوطني ببلكور، اسندت لها مهمة خياطة الاعلام الوطنية، ألقي عليها القبض نهاية عام 1957، واصبحت لعبة في يد النقيب ليجي)، والتي تتفق معظم المصادر والمراجع على أنها بمثابة السبب الرئيسي في اكتشاف المؤامرة (المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، 333).

في هذا الصدد ، يروي لنا أحد الشهود على العملية وهو رشيد أجعود ، أنه تم العثور في احد المخابئ بدوار آيت يحي موسى على فتاتين قادمتين من العاصمة، الاولى تدعى روزا والثانية مليكة، وبحوزتهما توصية مزورة من مسؤولي منطقة الجزائر، تطالب من قيادة الثورة بالولاية الثالثة تحنيدهما ، كونهما محل بحث من طرف البوليس الفرنسي، طرح عليهما العقيد عميروش بعض الاسئلة حول نشاطاتهما في العاصمة، فصرحتا أنه بعد المشاركة في عمليات فدائية تم توقيفهما وسجنتا في سجن سركاجي ، إلا أنهما تمكنتا من الفرار، لكن عميروش لم يقتنع بهذه الرواية، فأحالهما للاستنطاق والاستجواب، و بعد يوم كامل من الاستنطاق ، اكتشف امرهما وأمر الاستعلامات الفرنسية، فكان ذلك عبارة عن عمل ثوري مضاد للجوسسة و التغلغل (شوقي، ع.ك، 175).

كان مصير روزا الاعدام ، واستمرت عملية الاستنطاق والتعذيب والاعدام، لم يستطيع المعارضون أن يفعلوا شيئا ، فتم على اثرها اعدام الكثير من المشبوهين وهم أبرياء (بوعزيز، 175)، وكان قطاع الصحة والاستعلامات أكثر القطاعات تأثرا وضررا من العملية، ومع ذلك لم تسلم القطاعات الاخرى ، إذ استمر النزيف إلى أن وصلت الأمور إلى درجة لا تطاق طالت كل الفئات، وكادت أن تجعل من الولاية الثالثة مقبرة (أمقران، ع.ح، 1998: 65).

انتقلت عملية الزريق إلى الولاية الرابعة، لكنها لم تستفحل كما استفحلت في الولاية الثالثة، أما مسؤولوا الولاية الثانية فلم يصدقوا اطلاقا بوجودها- على حد تعبير قائدها علي كافي – والذي اعتبرها مؤامرة مدبرة من طرف المخابرات الفرنسية، والذي نبه العقيد عميروش بضرورة الرجوع إلى لجنة التنسيق والتنفيذ تطبيقا لمقررات مؤتمر الصومام (كافي، ع، 1999: 196).

ج – تدابير الولاية الثالثة لمواجهة مؤامرة الزريق:

كان رد العقيد اعميروش منسجما مع صرامته الثورية، وأمام تفاقم الظاهرة أصدر عميروش تعليمات لتبني استراتيجية قائمة على عدة حبهات هي:

- تكوين محكمة عسكرية للنظر في ملفات الزريق.

- اصدار امر إلى قادة المناطق بإلقاء القبض على كل جندي قادم من العاصمة، والتحق بصفوف الثورة بعد أفريل 1957.

- مراقبة بريد الولاية الرابعة والتحقق من كل رسالة تصل إلى المقر باسم أي ضابط كان.

- لا يصدر أمر بتوقيف أحد، إلا إذا كان عدد الذين ذكروا اسمه ثلاثة فما فوق.

- لا يسلم المتهم المقبوض عليه إلى مركز الاستنطاق، إلا بعد مروره على لجنة الامتحان التي تقوم بمناقشته بالطرق السلمية، ومحاورته وجس نبضه (واعلي، 165 - 169).

- تعيين لحنة تحقيق واستنطاق، أوكلت له مهمة الاشراف عليها لمحند والحاج.

- تنبيه الولايات الاخرى، واطلاعها على حجم الظاهرة، ودعوتها للتنسيق والتشاور (أتومي، 320).

د – نهاية المؤامرة:

انتهت المؤامرة مع وصول الشهيد العقيد عبد الرحمان ميرة مارس 1959، الذي قام باطلاق سراح المعتقلين من عملية الزريق البالغ عددهم حوالي المائة، مما أوحى للبعض ان نهاية المؤامرة ارتبطت بنهاية عميروش (أتومي، 321).

غير أن البعض يمدد في تاريخ نهايتها إلى شهر جويلية من نفس العام، وذلك بربط تاريخ نهايتها بتاريخ بداية عملية المنظار بقيادة الجنرال شال، مما أدى بقيادة الولاية الثالثة تنشغل عن القضية بالتفكير في كيفية التصدي للعميلة، فأهملت المحاكمات والاستنطاقات، لأنها كانت بحاجة إلى مجهود كل رجل (شوقي، 183).

انقسمت الآراء بشأن هذه المؤامرة من حيث صحة وقوعها وضحاياها إلى قسمين:

- قسم ينكرون حقيقتها ويعتبرونها مجرد اشاعات، بثتها مصلحة الاستعلامات الفرنسية، لخلق البلبلة بين صفوف الثوار، وقسم ثان يعتبرونها عملية مفتعلة،

صرح الرائد أحمد فضال المدعو "سي حميمي" قائلا:" من أنكر وجود الزرق في صفوفنا آنذاك فهو أزرق"، ايده المجاهد عبد العزيز واعلي الذي ذكر أن 1400 مجاهد و 40000 مسبل أقروا بوجودها (واعلي، 379 – 380).

أما الذين يعتبرونها مفتعلة ، فإنهم أكدوا على أنها كانت موجهة لتصفية صفوف المثقفين بالولاية الثالثة ، والذين أحصوا عددهم حوالي 1800 مثقف، وهو رقم مبالغ فيه، فأي مستوى تعليمي تحصلوا عليه؟ وهل كانت منطقة القبائل تزخر بالجامعات والمعاهد العلمية التي شيدتها فرنسا الاستعمارية، وهناك رقم آخر تراوح بين 600 و 800 ضحية (شوقي، 183)، بينما علي كافي فقدر عدد الضحايا بحوالي 1800 بالولاية الثالثة و 500 من الولاية الرابعة (كافي، 124).

بينما المراجع الفرنسية، فقد أعطت ارقام خيالية تدعو إلى الشك تتراوح بين 3000 و 4000 ضحية، وامام تضارب الارقام ، قدم المؤرخ الفرنسي شارل روبير أجيرون أرقام تقريبية، اعتماد على التقارير التي كانت بحوزة العقيد عميروش عند استشهاده، على النحو التالي: الذين تمت محاكمتهم كمتهمين قدر عددهم بـ 543 متهم، الذين تم الافراج عنهم 54 ، المحكومين عليهم بالاعدام 152، الذين هلكوا أثناء الاستجواب بلغ عددهم 336، ويبدو أن هذه الارقام الاقرب إلى الحقيقة برأي العديد من ضباط جيش التحرير الوطني الذين عاشوا الحدث، ولا زالوا على قيد الحياة (أتومي، 202).

لقد ادت عملية التطهير في الولاية الثالثة التي امتدت من صيف 1958 الى شتاء 1959 الى فقدان عدد كبير من اطاراتها، وافقدها ايضا استقرارها الداخلي الذي كان عنوانا لقوتها وتنظيمها، كما انها تزامنت مع فترة حرجة بشكل كبير بالنسبة للولايات التي فرضت عليها مواجهة عمليات شال الجهنمية، دون ان تصل اليها امدادات القيادة الخارجية التي عجزت عن ايجاد حلول عملية في مواجهة السدود المكهربة، وهو الامر الذي جعل الولاية الثالثة تقود جبهة داخلية عريضة في وجه الحكومة المؤقتة بعد اشهر قليلة من تأسيسها (خيثر، 272).

الخاتمة:

في ختام الكلام بودي ان ادرج مقتطفات من الرسالة التي وجهها كريم بلقاسم لروبير لاكوست عقب عملية العصفور الازرق، ومما جاء فيها : "...ظننتم بأن خلق وتسريب القوة ك هو عبارة عن حصان طروادة في كنف المقاومة الجزائرية، أنتم مخدوعون...، الذين كنتم تظنونهم خونة للوطن الجزائري هم في حقيقتهم مناضلون أوفياء لوطنهم، لم ولن يتوقف نضالهم من أجل استقلال بلادهم، وهم ضد الاستعمار، نحن نشكركم على دعمنا بالسلاح الذي نستخدمه لتحرير بلدنا..."، فقد أصيبت فرنسا كما قلت آنفا بضربة قاصمة في أجهزتها الاستخباراتية، حيث تبين مدى هشاشتها وسهولة اختراقها، بالمقابل أثبتت العملية بأن الانسان الجزائري لا يُشترى في قضاياه الوطنية، فعملت فرنسا لاحقا على الانتقام من منطقة القبائل عبر العملية الخطيرة التي عرفت بعملية الزريق والتي يمكن اعتبارها امتحان عسيرا اجتازته الولاية الثالثة، حيث سجلت فيه نتائج سلبية بالعودة إلى عدد الضحايا، ونتائج ايجابية في التصدي للحرب النفسية ووضع حد لشبكة العملاء والخونة، فعليه تغيرت الاساليب بالمنطقة وبالجزائر عامة.

بيبلوغرافيا البحث:

المصادر:

أتومي، جودي: **العقيد أعميروش بين الاسطورة والتاريخ**، دار ريم للنشر، بجاية، 2004.

أتومي، جودي: **أعميروش امام مفترق الطرق**، دار ريم للنشر، بجاية ، 2008.

أتومي، جودي: **وقائع سنين الحرب في الولاية الثالثة 1956 – 1962**، دار ريم للنشر، بجاية، 2012.

أجعود، رشيد: **الشاهد الاخير**، تر بوحبيب، حميد، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2002.

أزواوي، اعمر: **جومال الطوفان ببلاد القبائل**، دار الامل للطباعة والنشر، الجزائر، 2013.

أمقران، عبد الحفيظ الحسني: **مذكرات من مسيرة النضال**، دار الامة، الجزائر، 1998.

عزي، عبد المجيد: **مسيرة كفاح في جيش التحرير الوطني، الولاية الثالثة**، دار الجزائر للكتاب، الجزائر، 2001.

الصديق، محمد الصالح: **عملية العصفور الازرق**، منشورات دحلب، الجزائر، 1990.

الصديق، محمد الصالح: **رحلة في اعماق الثورة**، مع العقيد اعزوران محمد (فريروش)، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2002.

كافي، علي: **من المناضل السياسي الى القائد العسكري 1946 – 1962**، دار القصبة، الجزائر، 1999.

واعلي، عبد العزيز: **احداث ووقائع في تاريخ الثورة التحريرية بالولاية الثالثة**، دار الكتاب للنشر، الجزائر، 2011.

Lacoste- du jardin, Camille : **operation oiseau bleu**, ed la decouverte, paris, 1997.

Mekacher, Salah : **la guerre de liberation national aux P.C de la wilaya trois**, **dee 1957 – 1962**, 2eme ed, ed dar el amel, 2006

المراجع:

بوعزيز، يحي: **الثورة في الولاية الثالثة، اول نوفمبر 1954 – 19 مارس 1962**، دار الامة للنشر، الجزائر، 2004.

شوقي، عبد الكريم: **دور العقيد اعميروش في الثورة التحريرية 1954 – 1962**، دار هومة، الجزائر، 2004.

منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954: **استراتيجية العدو الفرنسي لتصفية الثورة الجزائرية**، دار هومة، الجزائر، 2007.

–الرسائل الجامعية:

خيثر، عبد النور: **تطور الهيئات القيادية للثورة التحريرية,1954–1962**,اطروحة لنيل شهادة الدكتورة في التاريخ المعاصر ,قسم التاريخ ,جامعة الجزائر,2005–2006.